الفن والحيـــاة(*)

فهمُ الشيء رؤيتُه في موضعه الحقيقي بين سائر الأشياء . ولا يقف العلم عند الجزئي أو عند الفرد إلا لكي يكشف عن القوانين التي تربط ذلك الجزئي أو ذلك الفرد ببقية العالم . ولكن إذا نظرنا إلى الأشياء من الناحية الجمالية ، فإن كل شيء يبدو لنا كأنه كلٌّ متميز تام ومحدد ، ونحن لا نتمتع بصورته إلا لأنها تمثل لنا شيئاً متميزاً له خصائص تعريفية خاصة . ولما كنا نحن — وحدنا — عاجزين عن خلق مثل تلك الصورة ، فإن الفن يسارع لمساعدتنا .

وتنتمي العاطفة العقلية sentiment intellectuel إلى طائفة العواطف الوجدانية sent. sympathique ، مثلها في كل ذلك مثل العاطفية الجمالية sent. esthetique . ولكن العاطفة الجمالية تتجلى فيها المشاركة الوجدانية أكثر مما تتجلى في العاطفة العقلية ، لأن هذه الأخيرة تحددها علاقة الأشياء فيما بينها أكثر مما تتحدد بعلاقة الشيء الجزئي نفسه بماهيته الخاصة . كذلك تنتج العاطفة الجمالية مما نبحث عنه لنوحد به بيننا وبين الأشياء فنحيا حياتها وندخل عنصر المخيلة في حياتنا الخاصة . وهناك لذة جمالية تنتج من استخدامنا لأعضائنا استخداماً حراً ، أي أنها ترجع إلى اللعب الذي نقلد فيه أعمالاً يباشرها الإنسان بحكم العادة من أجل غايات هامة وعملية . ويمكن أن نسمي كل فن لعباً ما دام يقدم لنا صورةً ما ، أعني إنتاجاً مثالياً للحياة الواقعية كلها أو أجزاء منها .

وتتخذ العاطفة الجمالية في نموها وانتشارها مظهراً خلقياً هاماً ، فحين تسيطر على الإنسان تجعله ينسى نفسه أمام قيمة الأشياء ، فلا يعود يفكر في نفسه ذلك النوع من التفكير الأناني المبتذل . ويتضمن الجمال الحقيقي قوة تجبرنا على تذكره وإرادة رؤيته ثانية وعلى حبه والإعجاب به . والشخص القادر على إنتاج الأشياء الجميلة ، مثل من ينظر إلى الأعمال الفنية أو أعمال الطبيعة من وجهة النظر الجمالية ، يحس ميلاً نزيهاً نحوها (أي غير أناني) وفي نفس الوقت تتيقظ فيه قوى الحدس والانتباه والإنتاج بحركة قوية متسقة ويضاف إلى ذلك عنصر مثالي آخر .

عرّف أرسطو التراجيديا بأنها تقليد حدث عظيم يثير الشفقة والخوف في الإنسان ويظهرها . وما يقال عن التراجيديا يمكن أن يقال عن كل ألوان الفن المختلفة . فاللعب (وكذلك الصورة) يثير نفس ما تثيره الأحداث الواقعية التي يمثلها من عواطف ، ولكن بشكل آخر تستخفي فيه العناصر المؤلمة والأنانية في تلك الأحداث . والحوادث الواقعية تفاجئنا وتقع مباغتة ، فلا نتمكن من كشف ما بينها من ارتباط واتصال ، ولذا يبدو لنا أنها تحدث بمقتضى الاتفاق والصدفة فقط ، وهذا هو السبب في أنها تقدم لنا أشكالاً متعددة ومختلفة تثير عواطف متعددة ومختلفة . ولكن الأمر على عكس ذلك في الفن ؛ فكل شيء هنا له غرض معين هو إثارة انفعال كلي واحد يتناسب مع خطوط الشيء أو الحدث الضرورية والتعريفية المميزة . ويستخرج الفن سماته الضرورية من صورة الشيء الفردية دون أن يذهب إليها ، وبذلك نتخلص من التنافر ونستقبل تأثيراً واحداً معيناً ، فيكون من السهل أن نندمج ونتوحد بعواطفنا في الشيء الممثل ، وهذا هو سبب أن الإنتاج الفني يجعلنا نفهم الأشياء فهماً أحسن ، وإن كان لا يقدم لنا طبعاً شرحاً علمياً . ولكن إذا كانت التراجيديا تثير الشفقة والخوف وتظهرها ، فإن الكوميديا تظهر عاطفة القوة والعاطفة الشخصية ؛ وما تثيره من ضحك ليس في الحقيقة تهكماً أو استهزاء ، ولكنه عاطفة تحرر وخلاص ، تأتي من رؤيتنا الصغائر والدنايا والمتناقضات والشرور ظاهرة عارية ساخرة، على معرفتنا في نفس الوقت أنها جزء من الحياة

وقد بحث كثيرون في علاقة الجمال بالأخلاق ، وإلى أي حد يتفق العمل الجمالي أو الظاهرة الجمالية مع مطالب الأخلاق ، وتساءلوا هل الصور والنقوش المحسوسة وغيرها جائزة ومباحة ولا تتعارض مع الأخلاق أم لا ؟ وفي الحقيقة ليس هناك محل لمثل هذا التساؤل ؛ ففيما يختص بمادة العرض وشكله لا يوجد أي اختلاف أو تنافر بين ما يقتضيه الجمال في الواقع وما تسمح به الأخلاق ، فكل ما له قيمة جمالية لا بد أن يكون متفقاً مع التعاليم الأخلاقية . وفي صلة الفن بالبيداجوجيا نجد أنه لا يمكن السماح بوضع كل قصيدة ، ولا أي قصيدة ، بين أيدي الأطفال فيتداولونها فيما بينهم . ولكن ذلك لا يتصل بالقيمة الجمالية ولا

(*) ملخصة عن الفرنسية عن كتاب : H. Höffding. Morale

يحط منهـا ، فإن الذى تهيج نزعاته الحسية أو الشهوية من أثر تفنى مثلاً إنما يحدث له ذلك لأنه لم ينظر إليه من الناحية الجمالية فلم يتطهر ميله وهواه ، بل جاء الأمر على العكس وهاجا بشدة . وذلك الشاب الذى يحدثنا عن لوسيان أنه أغلق على نفسه معبد أفروديت وقضى فيه ليلته يعتنق تمثالها ، لم تدفعه إلى ذلك فى الواقع العاطفة الجمالية ، بل شىء آخر

وعليه ، إذا كان الفن يمنى حياة مثالية ، فإن القيمة الفنية يجب أن تطابق القيمة الحيوية وتناسبها . وبالتالى قيمة العمل الفنى لا ترتكز فقط على النبوغ أو العبقرية ، بل على الحياة التى يمثلها كذلك . ويجب على الفنان القيمى أن يصارع فى سبيل سيادة وجهة نظره نحو الأشياء حتى يقبلها الناس . ويرجع جزء كبير من المعارضة ضد الواقعية الجمالية الحديثة إلى أن الناس يبحثون فى الفن عن اللهو أو الراحة فقط ، فهم لا يحبون أن يواجهوا مرارة الحياة وأحزانها ، ولا يريدون أن يثيرهم الخوف والشفقة ؛ قد اعتادوا على تذوق التراجيديا القديمة والإعجاب بما فيها من ضربات القدر القاسية ، ولكنهم لا يمكنهم احتمال تراجيديا حديثة مثل تراجيديا « إبسن » مثلاً المسماة «أشباح» . والواقعية الحديثة فى الأعمال الكبرى لم تصنع شيئاً إلا أن جعلت النظر إلى الحياة الواقعية أعمق عن ذى قبل . فالفن إذن يباشر عملاً تربيوياً إذ يفتح عيوننا ويقوى مشاعرنا وأنفسنا لمقابلة الحياة وجدّها ، ويهيج وجداناتنا ضد ما فيها من شرور ، ويرينا كيف أن الحياة الإنسانية مغلولة ومسجونة فى سجن سحيق بعيد . فالشاعر مثلاً يمكنه أن يعلمنا ويهيئنا لتقويم الأعمال أحسن من أى فلسفة خلقية

وبالرغم من عِظَم المكان الذى يشغله الفن فى الحياة ، فإنه لا يمكن أن يقوم مقامها . ولا يمكن أن ينظر الفنان الحق إلى الحياة الواقعية كشىء فنى بسيط . فهو فى فنه يبحث عن العمل أكثر مما يبحث عن التسلية ، وينظر إلى فنه كعمل جِدّى اجتماعى . ومَثل الفنان مَثل العالِم يرى الحياة فيحاول أن يريها للآخرين مثلما رآها هو . ولكن الهواة يرون الحيـاة لعباً حتى إن شيللر يقول : « إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا حين يلعب » فهو يرى أن العيش فى دنيا الخيال واللعب هو عمل الإنسان الذاتى ، ويجب أن يكون للانسان قلب حر كيما يتخلص من ضغط الواقع وسيطرته ويذهب إلى الحياة المثالية والواقعية فى الفن ـ مثلها فى ذلك مثل الرومانتيكية تماماً ـ تجعلنا نعيش فى عالم خيالى أغراباً عن الواقع . فالواقعى حقيقة غارق بدوره فى الخيال كالمثالى ؛ وخطر ذلك أعظم على الواقعى منه على المثالى ، لأن المثالى المعتدل يعيش فى عالمين : عالم الأحلام المثالى ، والعالم السفلى الوضيع ، فهو يتهكم من هذا الأخير ، ولكنه بالرغم من ذلك يعرف كيف يقبله ويراه على ما هو عليه ، فلا يكون الاستهواء الجمالى عليه كبيراً مثلما هو عليه عند الواقعى الذى يريد إشباع مخيلته من المؤثرات الواقعية نفسها

وليس الفن عملاً صغيراً بسيطاً يختص به بعض الناس دون غيرهم ، أو ينفرد به عصر دون غيره من العصور . بل الفن شىء عام لكل أمة ولكل عصر منه حظ مقسوم . فلا بد أن يكون لكل أمة فنها الخاص ، ولا بد أن يكون لكل عصر فنه الذاتى . ومن العسير أن تكتفى أمة من الأمم بفن غيرها دون أن يكون لها فن خاص بها ، لأن كل أمة لا تعرف تماماً إلا نفسها وما يمكن أن يؤثر فيها من مظاهر حياتهـا تأثيراً جمالياً . والفنان يعكس تلك المظاهر الجمالية انعكاساً كاملاً ، لأنه يعيش فيها وقد اندمجت عواطفه بها . وعلى العموم يمكن أن يُقال إن هناك أساساً مشتركا من الفكر والحساسية لكل شعب وكل عصر يمثله الفنانون لنا ويعكسونه ، فنرى أنفسنا كما لو كنا نحيا فيه ، مثلما فعل هوميروس ، ودانتى ، وشكسبير ، وجوته ، وغيرهم . إذ عرفونا تمام التعريف — خلال آثارهم وأعمالهم — بالحياة العقلية الإنسانية عند الأوربيين .

أحمد أبو زيد
كلية الآداب — جامعة فاروق الأول

الروايح العطـــرية
وشنط يد للسيدات
تجدونها بمكتبة الجزيرة
ص . ب . ٩٨ — تليفون ١٥
متعهدة مجلة الرسالة بواد مدنى